التعازي في شعر الشريف المرتضى

إعداد الباحث
علي خليفة أمحمد جلوال

لقد كان للمجتمع العربي الإسلامي عادات وتقاليد ورسوم اتبعها في ممارسة حياته اليوميّة، وهي بواقع الحال تنم وتكشف لنا عمّا كان يدور وما كان موجودًا فعلا من مفردات حضاريّة في ذلك المجتمع، ولعل مفردة العزاء من المفردات الاجتماعيّة التي عرفها العرب ومارسوها منذ فترة ما قبل الإسلام وحتى ظهوره، مع اختلاف بسيط في طرق التطبيق.

والعزاء يرتبط بالموت ارتباطًا وثيقًا، وهو بذلك مبني على أساس الموت الذي لا مفرّ منه؛ لأن الإنسان لا يستكمل حد الإنسانية إلا بالموت، أي أن الموت مرحلة من مراحل الحياة، ولابد لأي إنسان أن يمرّ بتلك المرحلة التي تعدّ آخر مرحلة من مراحل حياته، قال ابن جريج والثوري: "لله السلطان والعظمة، عش يا ابن آدم ما عشت، لابد من الموت"[1]، وقد وردت في القرآن الكريم العديد من الآيات القرآنية التي تؤكد وتشير إلى حتميّة الموت، منها قوله تعالى: " كل نفس ذائقة الموت"[2]، وقوله تعالى: "كل شيء هالك إلا وجهه"[3]، وقوله تعالى مخاطبًا الرسول الكريم – صلى الله عليه وسلم–: "إنك ميت وإنهم ميتون"[4].

ولما كان الأمر كذلك كان لابد من العزاء في ذلك المجتمع، الذي عُرفت فيه الألفة والمحبة والتواصل؛ لتقديم ما يمكن تقديمه من: كلام حسن، وموعظة شافية، ومودة خالصة، وحزن باكٍ إلى صاحب العزاء؛ شفاءً للغليل وتخفيف ما يمكن تخفيفه من ألم وعذاب كانا ينتابان أهل الميت حين وفاته، أو بمعنى آخر: إن العزاء هو ذلك الدواء الذي طالما كان يبحث عنه صاحب العزاء وآل بيته، فلا يجده إلا حينما يفد إليهم من يشاركهم المصيبة، ويُسلّيهم عن مُصابهم، ويُقدِّم لهم المعونة المعنوية، وربما حتى المادية في ذلك المجتمع، الذي كان من مقوّماته: الحاجة إلى تلك المعونات

[1]– مصنف عبد الرزاق، للصنعاني، تح: حبيب الرحمن الأعظمي، دار النشر: المكتب الإسلامي "بيروت"، ط2، 1403هـ، 42/6.

[2]– سورة: الأنبياء، الآية: 35.

[3]– سورة: القصص، الآية: 88.

[4]– سورة: الزمر، الآية: 30.

في مثل تلك الحال؛ ولأن الموضوع بطبيعته مفتوح على مرّ العصور التاريخية، التي لا نستطيع حصرها في هذا البحث.

من ثَمَّ سيقتصر حديثنا عنه على العصر العباسي الثاني كأنموذج للمجتمع العربي الإسلامي ككل، كما سيكون الحديث عنه مشتركًا ما بين العامة من الناس، والخاصة من: خلفاء وأمراء، وولاة، وعمال، وقادة، وقضاة، ووجهاء، وغيرهم من أصحاب الشأن والسلطان، وقبل الخوض في تفاصيل هذا الموضوع في المجتمع العربي الإسلامي لابد لنا من: التطرّق ولو بالشيء البسيط إلى معنى التعازي أو العزاء.

العزاء لغة واصطلاحًا:

العزاء لغة: في الصحاح "عَزَوْتُه إلى أبيه، وعَزَيْتُه لغة، إذا نسبته إليه، فاعتزى هو وَتعَزَّى، أي: انتمى وانتسب"[(1)]، وفي اللسان "والعَزَاءُ والعِزْوَة: اسم لدَعْوَى المُسْتَغِيث"، وقيل "العَزَاءُ هو: الصَّبرُ عن كل ما فَقَدْت، وقيل: حُسْنُه...، ويقال: إنه لعَزِيٌّ صَبُورٌ إذا كان حَسَنَ العَزَاء على المصائِب، وتقول: عَزَّيتُ فلانًا أُعَزِّيه تَعزِيَةً أَي أَسَّيته وضَرَبْتُ له الأُسى، وأَمَرْتُه بالعَزَاء فَتعَزّى تَعَزِّيًا أَي تَصَبَّرَ تَصَبُّرًا[(2)].

إذن جاءت لفظة العزاء في اللغة على ثلاثة معانٍ: الانتماء والانتساب، ودعوى المستغيث، والصبر وحسنه، وهذه الثلاثة لها اتصال بالناحية الشعرية من ناحية: أن الشاعر قد ينسب المتوفى

---

(1)– الصحاح– تاج اللغة وصحاح العربية، إسماعيل بن حماد الجوهري، تح: أحمد عبدالغفور عطار، ط ٢، بيروت: دار العلم للملايين، ١٣٩٩هـ –١٩٧٩م، مادة (عزا).

(2)– لسان العرب، لابن منظور، صححه: أمين محمد عبد الوهاب–محمد الصادق العبيدي، ط٢، بيروت: دار إحياء التراث العربي مؤسسة التاريخ العربي، ١٤١٧هـ –١٩٩٧م، مادة (عزا).

إلى آبائه للإفصاح عن نسبه، كما أنه يستغيث الله ويدعوه أن يلهمه الصبر[1].

أما في الاصطلاح: فالعزاء "السلو وحسن الصبر على المصائب، وخير من المصيبة: العوض منها والرضى بقضاء الله والتسليم لأمره؛ تنجّزًا لما وعد من حسن الثواب"(2)، و"كأن المعزِّي يقول للمصاب: اذكر أباك وأجدادك فإنهم قد هلكوا وبادوا، يسليه بهذا القول"(3)، ثم اقتصر استعماله في الصبر على كارثة الموت، وأن يصبر من فقد عزيزًا بما فاجأه به القدر(4).

إذن هناك دواعٍ إلى التوجّه إلى العزاء، فقد يجد الشاعر أنه قد أفرغ ما لديه من شُحنة الحزن، فيسلم نفسه إلى التصبّر يدعوها إليه أو يدعو أهل الميت وذويه؛ يأسًا من البكاء وفرارًا من لوعة الحزن، وقد يكون الداعي إليه: التصبّر، والتعقل، والتفكر؛ فيجد أن الموت هو: المصير وهو النهاية الحتمية التي يؤول إليها كل حي؛ فهو خاتمة المطاف، فالاسترسال في البكاء لا يفيد، فإذا خلد إلى الصبر يستريح إليه، وتلجأ نفسه إليه، والبعض قد يدفعه التفكير العميق إلى الفلسفة؛ فيرمي ببصره وبصيرته بعيدًا إلى ما وراء الموت وما وراء هذا الوجود فيزف إلى الناس مصارعهم ويذكرهم بنهايتهم ويربط بين حياتهم في الدنيا وما ينتظرهم في الآخرة[5].

وقد لجأ الشريف المرتضى إلى التعزية؛ ليتسلى بها عن مصابه ويخفّف وطأته في نفسه ونفوس الآخرين، ولقد كان للشعراء دور كبير في تخطي الواقع، وذلك من خلال خيالهم وتصوير

---

[1]– رثاء الشهداء في عصر صدر الإسلام حتى سنة ٤٠ هـ، د. سفير خلف القثامي، ط١، المدينة المنورة: مطبعة الجامعة الإسلامية، ١٤٢٥هـ، 1/41-42.

[2]– التعازي والمراثي، للمبرد، تح: محمد الديباجي، دمشق: مطبعة زيد بن ثابت، ص ٨.

[3]– رثاء الشهداء في عصر صدر الإسلام، ٤٣/١، نقلاً عن: شرح ديوان أبي الطيب المتنبي، تحقيق: د. عبد المجيد دياب، دار المعارف– القاهرة، 489/٣.

[4]– سلسلة فنون الأدب العربي رقم ٢ – الرثاء، د. شوقي ضيف، ط٤، دار المعارف– القاهرة، ص٨٦.

[5]– من عيون شعر المراثي، تح: د. محمد إبراهيم نصر، دار الرشيد، ص٢١٩.

غير المدرك وجعله مقبولاً لديهم ولدى الآخرين[1]؛ ففن العزاء يأخذ ألوانًا مختلفة تبعًا لطبيعة الشاعر وقدراته ومزاجه، فبعض الشعراء كان عزاؤه كله مواساة وفلسفة للموت والحياة وتذكيرًا بالآخرة، وبعضهم كان يحول العزاء إلى بكاء على الفقيد وإشادة به فيداوون القرح بالقرح؛ فهم يبكون معه ويسترجعون، حتى تعود نفوسهم إلى رشدها، وأكثر ما كانوا يفعلون ذلك عند موت الأبناء[2]، ويبرز هذا وما سبقه بوضوح في شعر الشريف المرتضى كما سيأتي:

عزاء الشريف المرتضى للخلفاء والملوك:

لقد نظم الشريف المرتضى قصيدة طويلة بلغت ثلاثة وخمسين بيتًا؛ ليعزّي بها الخليفة القادر بالله العباسي في موت ابنه – وهو في ريعان شبابه–، مسليًا له، فجميعنا يصعب عليه نسيان الأحبة – وبخاصة الأبناء–؛ لأن الأحزان والمصائب أقسى من أن تُنسى، فقد أحدثت المصائب حرقة عميقة في قلبي لا يمكن نسيانها، أعقبها سيلٌ جارفٌ من الدموع المنهمرة، التي كانت غالية نادرة النزول قبل هذه المصيبة، وكم كانوا يُعاتبون الحزين!، أما الآن فمن العيب الشديد عدم البكاء على ما حلّ بأمير المؤمنين من مصيبة الفقد هذه؛ لأن المصائب تطرق أبوابنا من غير استئذان أو حجاب، وقد عبّر شاعرنا عن هذا بقوله: [الكامل]

مـــا فـــي السُّـــلوّ لنـــا نصـــيبٌ يُطلـــبُ ... الحـــزنُ أقهـــرُ والمصـــيبةُ أغلـــبُ
لـــكِ يـــا رزيّـــةُ فـــي فـــؤادِيَ زفـــرةٌ ... لا تُســـتطاعُ ومـــن جفـــونيَ صَـــيِّبُ
قـــد كـــان عيبًـــا أن جـــرى لـــيَ مـــدمعٌ ... فـــاليوم إن لـــم يجـــرِ دمـــعٌ أعيـــبُ
ولطالمـــا كـــان الحـــزينُ مُؤَنِّبًـــا ... فـــالآن مُـــدرِّعُ العَـــزاءِ مؤنَّـــبُ
طرقـــتْ أميـــرَ المـــؤمنين رزيَّـــةٌ ... والـــرُّزْءُ فينـــا طـــارقٌ لا يُحْجَـــبُ[3]

---

[1]–شعر الرثاء العربي واستنهاض العزائم، د.عبد الرشيد عبد العزيز سالم، الكويت: وكالة المطبوعات، ص91.

[2]– المصدر السابق، ص93.

[3]– ديوان الشريف المرتضى، مرجع سابق، 99/1.

ثم بيّن الشريف المرتضى أن المصائب لا ينجو منها أحد مهما كان ذا جاهٍ أو مُنعة أو شدة بأس، ولو كان يستطيع أحدٌ دفعها لصدّها هؤلاء الشجعان الأقوياء، الذين يقطعون الرقاب بين مثار النقع ويُلطِّخون الرماح بدماء أعدائهم؛ فهم الذين يُداهمون الموت في عُقر داره، وقلوبهم متينة كالجلمود جرأة، ثم استغرق الشريف المرتضى في تعداد محاسن الخليفة وفضائله، وذكر بعض صفات ابنه الذي داهمه الموت وهو في مقتبل عمره وشبابه، بعد أن جنى من ثمار المجد، وذاق حلاوة التقوى والورع، وحاز على عفة قصر عنها المتعبد المنزوي...، وقد تمثّل شاعرنا هذه المعاني في قوله: [الكامل]

لـــم يـــنجُ منهـــا شـــامخٌ مترفِّـــعٌ ... أو مَـــــدخلٌ مُتَمَنَّـــــعٌ مُتَصَـــــعَّبُ
لـــو كـــان يُـــدفع مثلُهـــا ببســـالةٍ ... لحمـــى عَوالِيَهـــا الكمـــاةُ الغُلَّـــبُ
الضّـــاربون الهـــامَ فـــي رَهَـــج الـــوغى ... والسُّـــمْرُ تُلطـــخ بـــالنّجيع وتُخضَـــبُ
والهـــاجمون علـــى المنيّـــة دارَهـــا ... وقلـــوبُهم كالصَّـــخر لا تتهيَّـــبُ
قـــومٌ إذا حَملـــوا القنـــا وتنمّـــروا ... ركبـــوا مـــنَ العَـــزّاء مـــا لا يُركـــبُ
أو أقـــدموا فـــي معـــركٍ لـــم يَنكُصـــوا ... أو غـــالبوا فـــي مَبْـــرَكٍ لـــم يُغلبـــوا
رُزءٌ بمُفتَقَـــــدٍ أرانـــــا فقـــــدُه ... أنَّ العُـــلا والمجـــدَ قَفْـــرٌ سَبْسَـــبُ
والأرضُ بعـــدَ نضـــارةٍ مـــا إنْ لهـــا ... إلاّ الأديـــمُ المقشـــعرُّ المُجـــدِبُ
والنّـــاس إمّـــا واجـــمٌ متخشِّـــعٌ ... أو ذاهـــلٌ خلـــعَ الحِجـــا مُتَسَـــلَّبُ
إنْ يمـــضِ مقتبـــلَ الشّـــبابِ فإنّـــهُ ... نـــالَ الفضـــائلَ لـــم ينلْهـــا الأَشـــيبُ
ورَعٌ نَبـــا عنـــه الرِّجـــالُ وعفّـــةٌ ... لـــم يَســـتطعْها النّاسِـــكُ المتجنِّـــبُ[1]

[1]– ديوان الشريف المرتضى، 1/99–100.

كما أعلن الشاعر فداءه للخليفة بكل ما يملك، حتى لو شُلَّ منه كتف فداه بالكتف الآخر، ثم ذكّره بأن الله قد أنعم عليه بولدين كنجمين نيّرين، واحد غَرُبَ، وآخر يملأ العيون نورًا، أو أنهما نعمتان: سُلِبَت منهما واحدة، وما زالت الأخرى محفوظة مدّخرة، أو أنهما غصنان لأصل واحد، ذوى منهما واحد، وبقي الآخر محتفظ ببريقه ونضارته، أو أنهما قناة لرمح: تكسّرت بعض كعوبها، وما زالت سائر الكعوب قويّة متينة، وقد جاءت هذه المعاني في قوله: [الكامل]

ولئن وَهَى بالرُّزءِ منّا منكبٌ … فلقد نَجا من ذاك فينا منكِبُ

نجمانِ هذا طالعُ إيماضُهُ … ملأَ العيونَ، وذاك عنّا يغرُبُ

أو نعمتان؛ فهذه متروكةٌ … مذخورةٌ أبدًا، وأُخرى تُسلبُ

أصلٌ له غصنانِ: هذا ذابلٌ … ذاوٍ، وهذا ناضرٌ متشعّبُ

أو صَعْدةٌ فُجِعَتْ ببعضِ كُعوبها … ولها كعوبٌ بعد ذاك وأكعُبُ

أو أجدَلٌ ما سُلَّ منه مِخْلَبٌ … فاجتُثّ إلاّ نابَ عنه مِخلَبُ(1)

من ثم تساءل الشريف المرتضى على سبب تنافس الناس على البقاء، مع العلم بأن الحياة مجرد غيم يعترض السماء، يعقبه برق لا جدوى من ورائه، ثم أخذ شاعرنا في نقل خبرته في الحياة وتجاربه في صورة نصائح إلى الخليفة فقال: أن الموت لا يُبقِي على أحد، وهو سينال السخيَّ والبخيل، ويذوقه الجميع دون تفرقة بينهم، حيث يأتي بغتة دون استعداد عاجلا أو آجلا، ولكننا نخطئ حينما نعتب على الأيام ضرباتها وابتلاءاتها؛ فهي مغلوبة على أمرها، ولا شيء ينفع في الدنيا إلا وفيه ضرر، ولا محبّب إلا وهو مخيف، ولو صفت الأيام ذات مرة من بين الأحداث، إلا وتكدّرت وتغيّر صفاؤها بعد ذلك، وقد عبّر عن هذه المعاني بقوله: [الكامل]

ماذا التنافسُ في البقاء، وإنّما … هو عارضٌ ماضٍ وبرقٌ خُلَّبُ

---

(1)- المصدر السابق، 1/101-102.

ذاقَ الحِمـــــامَ مبـــــذّرٌ ومُقتّـــــرٌ وأتـــى إليـــهِ مـــبغَّضٌ ومُحبَّـــبُ
فمعجِّـــــلٌ لحمامـــــه ومؤجَّـــــلٌ ومشـــرِّقٌ بطلوعـــه ومغـــرِّبُ
ونُعاتـــب الأيّـــامَ فـــي فُرُطاتِهـــا لكـــن نُعاتـــب ســـادرًا لا يُعتـــبُ
لا نـــافعٌ إلاّ ومنـــه ضـــائرٌ أو مرغَـــبٌ إلاّ وفيـــه مُرهِـــبُ
ومتـــى صَـــفا خلـــلَ الحـــوادثِ مَشْـــربٌ عـــذبٌ تكـــدّر عـــن قليـــلٍ مشـــربُ[1]

كما قام الشريف المرتضى بتعزية الخليفة جلال الدولة في موت ابنته، التي عقد عليها للملك أبي كاليجار في شهر المحرم سنة 430هـ، حيث أوضح أنه تجرّع مُرّ الشراب عندما أودت المنايا بالفقيدة؛ فقد عَظُم الابتلاء بوفاتها حتى كاد الناس ينسَوْن موتاهم قبلها، وسالت الدموع وازدادت حُرقة القلوب حزنًا على فقدها، ومن أسف أن الزمان قد اعتاد البطش بخيرة الناس مهما كانت الدفاعات والحصون؛ فالموت لا يقبل شفاعة أحد، ولا يُؤخّر ساعة أحد مهما كان قدره أو شرفه؛ فقد سكن تحت الثرى الكثير من العظماء الذين صاروا إلى البلى، وهذه سُنّة كونيّة لا يمكن تغافلها أو تجاهلها، مهما كانت التضحيات المبذولة لمقايضة الموت، وما قيمة بحار الدموع المهرقة لفداء الميتة طالما أنها ستسكن جنات عدن؟...، وقد عبّر شاعرنا عن هذه المعاني بقوله: [الكامل]

قـــل للنّوائـــبِ قـــد أصـــبتِ المقـــتلا وسَـــقيتِنا فيمـــا جَنيـــتِ الحـــنظلا
أثكلـــتِ مَـــنْ لمّـــا جزعنـــا ثُكلَـــه أنســـيتِنا مـــن قبـــه مـــا أثكـــلا
فـــالعينُ يجـــرى ماؤهـــا لا للصّـــدى والقلـــبُ يوقـــدُ جمـــرهُ لا للصّـــلى
عـــادات هـــذا الـــدّهر أن يســـتلّ منْـــ ـــنَا الأمثـــلَ المـــأمولَ ثـــمّ الأمـــثلا
إنّـــا نبـــدِّلُ كـــلَّ يـــومٍ حالـــةً بخلافِهـــا مـــن قبـــلِ أنْ تُســـتبدلا

[1]– ديوان الشريف المرتضى، 102/1.

ويُنَقَّـــلُ الإنســـانُ عـــن حالاتِـــهِ ... ولِداتِـــه مـــن غيـــرِ أن يَتـــنَقّلا
نَبنِـــى المعاقـــلَ للخطـــوبِ فـــإنْ أتـــتْ ... رُسُـــلُ الحِمـــامِ فمـــا ابْتَنينـــا مَعْقـــلا
كـــم ذا لنـــا تحـــتَ التُّـــرابِ محاســـنٌ ... تُرمَـــى علـــى عمـــدٍ إلـــى نحـــوِ البِلـــى
والمـــرءُ فـــي كـــفِّ الزَّمـــانِ وديعـــةٌ ... كـــي تُقتضَـــى وحديقـــةٌ كـــي تُختَلـــى
مـــاذا البكـــاءُ علـــى الـــذي ولّـــى وقـــد ... جُعلـــتْ لـــه جنّـــاتُ عـــدنٍ منـــزلا؟[1]

عزاء الشريف المرتضى للوزراء:

لم يغفل الشريف المرتضى تقديم العزاء للوزراء في موت قريب لهم أو محبّب إلى قلوبهم، من هذا تقديمه العزاء إلى: عميد الرؤساء أبي طالب بن أيوب، عن ولدٍ له سقط عليه السقف؛ فمات دون إخوته، حيث أراد أن يبلغه رسالة فحواها: أن الزمان لم يسئ إليك ولكن عليك أن تشكر الله سامعًا مطيعًا، حين سلبك واحدًا من أولادك وترك لك غيره ممن تُحب وتهوى؛ فاستعض عن الحزن بالسرور، ولا تذرف دموعك على ما مضى؛ فقضاء الله كله خير، ولتحمد الله أن المصيبة لم تُصبك أنت، حيث أنقذَ من المصيبة مَن دَاوى القلب المصاب...، وقد جسّد شاعرنا هذه المعاني في قوله: [الخفيف التام]

مـــا أســـاء الزمـــان فيـــك الصـــنّيعا ... فاشـــكرِ اللهَ ســـامعًا ومطيعـــا
أخـــذَ اللهُ واحـــداً ثـــمَّ أبقَـــى ... لـــك ممّـــن تَهْـــوى وتَرجـــو جَميعًـــا
فهـــبِ الحـــزنَ للسُّـــرورِ ولا تَـــذْ ... ر علـــى مـــا مضَـــى وفـــاتَ دُموعـــا
مـــا لنـــا مَجْـــزَعٌ ولـــو أنّـــه كـــا ... ن لحوشـــيتَ أن تكـــون جَزوعـــا
قـــد شَـــكرنا يـــدًا تجافَـــتْ عـــنش الأصْـــ ... ـــلِ وإنْ جثَّـــتِ الغصـــونُ فروعـــا
ونَجـــا ســـالمًا مـــنَ الهَـــوْلِ مَـــن دا ... وَى نجـــاءً منـــه الفـــؤادَ الوجيعـــا[1]

[1]– ديوان الشريف المرتضى، 36/3.

من ثم استكمل شاعرنا تعزيته وتسليته للوزير أبي طالب بن أيوب في موت ولده، حينما بيّن له أننا لو تفكّرنا في نِعَم الله علينا لصبرنا وحمدنا الله على قضائه؛ فضربات الزمان المثلومة في السيوف القاطعة لا تُصيب القطيع، وإذا كان لك من الأمر شيء لاستبدلت الإبل المسنّة بالإبل القويّة الشديدة لحمل الأثقال، ولكن يجب عليك أنْ تعلم أنّ قضاء الله نافذٌ ولا يأخذ إلا الأخيار، وما دام الموت سيهاجمنا بلا استثناء فلا قيمة لطول عمر أحد أو قِصَره، وكم كنت أتمنى فداءكم قدر استطاعتي!، ولكن الأماني وحدها لا تُجزئ، وقد تكرّرت هذه المعاني بكثرة في شعر التعازي عند الشريف المرتضى، حيث عبّر عنها هنا بقوله: [الخفيف التام]

ولو أنّا حقّا نفكّرُ فيما ... يفعلُ الدَّهرُ مُعطيًا ومَنُوعا
لعَددنا منه العطاءَ ابْتِزازًا ... وحَسَبنا الغروبَ منه الطُّلوعا
وثُلومُ الزّمانِ في قاطعِ الأسـ ... ـيافِ يُعْهَدْنَ لا يُصِبْنَ القطيعا
وإذا هبّتِ الرياحُ فما زَعْـ ... ـزَعنَ فينا إلا البناءَ الرّفيعا
ولِحَمْلِ الأثقالِ لا يطلبُ الحا ... ملُ منّا إلا الجَلالَ الضَّليعا
والمصيباتُ لا يُصِبْنَ سِوى الأخْـ ... ـيَارِ منّا إذا وَلَجْنَ الرُّبوعا
وإذا لم يكُنْ سِوى الموتِ فالما ... ضي بطيئًا كمنْ يموتُ سريعا
أنا منكم خَفضًا وبُؤسًا وأَمْنًا ... وحِذَارًا وعِزَّةً وخُشوعا
ولوَ انِّي استطعتُ ما مسَّك السُّو ... ءُ وتَبقى عليَّ أَنْ أستطيعا[2]

ومثله عزاء الشريف المرتضى لأبي عليّ الحسن بن حمد في وفاة والدته سنة 339هـ، حيث بيّن أن هذه السيّدة الفاضلة تستحق كل حزن، ويُفقد بموتها الصبر والعزم، حتى أن المحبّ لها يفقد كل حزم يمتلكه؛ فالمصيبة تأتينا على غِرّةِ دون حَذّر، كهجوم الحيوان المفترس على الأنعام

(1)– ديوان الشريف المرتضى، 224/2.
(2)– المصدر السابق، 224/2–225.

حين غفلة راعيها؛ فكل منا يترقّب وصول الموت الذي لا مفرّ منه، مهما استعد له الإنسان حتى ينجو من قبضته، وقد أثبتت لنا المحاكاة والخبرة أن الناس جميعًا يصيرون طعامًا للموت، مهما طال العمر أو قصُر، والذي لا يعرف هذا فهو إنسان واهمٌ يؤمِّل نفسه الأماني ولا يُدركها..، وقد تجسّدت هذه المعاني في قول شاعرنا: [البسيط]

فـــي مثلهـــا يُســـتثارُ الصّـــبرُ والجَلَـــدُ وعنـــدها يَتقاضَـــى الحـــزمُ مـــا يَجِـــدُ
ومـــا الرزيَّـــةُ إلاَّ أنْ تُلِـــمَّ بنـــا ونحـــنُ لاهـــونَ عنهـــا غُفّـــلٌ بُعُـــدُ
مثـــلُ السَّـــوام رَعَـــى فـــي أرضِ مَضْـــيَعةٍ نـــامَ المُسِـــيمُ بهـــا واســـتيقظَ الأســـدُ
تَمشـــي الضَّـــراءَ وهـــامٌ لا تُخَمِّرُهـــا مخلِّـــقٌ فـــوقَهنَّ العـــارِضُ البَـــرِدُ
وإنّمـــا المـــرءُ فـــي الأيّـــامِ مُحتَـــبَسٌ علـــى المنيَّـــةِ تَأتيـــهِ ومُقتَعَـــدُ
يَســـعى ولـــم يســـعَ إلاَّ نحـــوَ حُفرتـــهِ يخـــالُ مُعتمـــدًا أو كيـــفَ يعتمـــدُ
جـــابَ الـــبلادَ وعـــدَّى عـــن مَصـــارِعِهِ فـــاختطّ مصـــرَعه مِـــنْ بينهـــا بَلَـــدُ
وكيـــف يَنْجـــو حِبـــالاتِ الـــرَّدى رجـــلٌ مُســـتجمعٌ للمنايـــا بعـــدَه بَـــدَدُ؟
وقـــد عَلمنـــا بأنّـــا معشـــرٌ أُكُـــلٌ للمـــوتِ نُوجَـــدُ أحيانًـــا ونُفتَقَـــدُ
يرتـــاحُ نحـــوَ غـــدٍ مـــن غَفلـــةٍ أبـــدًا مَـــنْ لـــيس يَـــدري بمـــا تجنـــي عليـــهِ غَـــدُ[1]

ولقد استشرف الشريف المرتضى في عزائه الوزير الحسن بن حَمَد بالاستشهاد بموت العظماء قبل موت والدته، بعد وصولهم أعلى درجات المجد والرفعة، ولم يُخلّد أحد قبلها عَظُم شأنه؛ فالكل ذائق لكأس المرار بعد أن ذاق كأس النعيم والعسل، ولن ينفع أحدنا محاولاته للبقاء والفرار من الموت مهما طال أو قصُر عمره؛ فالكل إلى زوال وفناء، ولا يسعُنا إلا البكاء والحزن على فقدهم..، وامتثل الشريف المرتضى للتعبير عن هذه المعاني بقوله: [البسيط]

[1]– ديوان الشريف المرتضى، 323/1.

كـــم ذا فَقَـــدنا كرامًـــا لا إيـــابَ لهـــمْ ... حُطُّـــوا مـــن المنـــزل الأعلـــى ونَفتَقِـــدُ
ذاقـــتْ شِـــفاهُهُمُ طعـــمَ الـــرَّدى مَقـــرًا ... وطالمـــا كـــانَ يجـــري بَينهـــا الشَّـــهَدُ
وكـــم وَرَدْنـــا ومـــا تُغْنِـــي ورادَتُنـــا ... إنّـــا وردنـــا – وأُعْفُـــوا – مُـــرَّ مـــا وَرَدوا
لـــم يُغـــنِ عـــنهُمْ وقـــد هـــمَّ الحِمـــامُ بهـــمْ ... مـــا جَمَّعـــوا لـــدفاع البُـــؤْسِ واحتشـــدوا
ولـــيسَ يُجـــدي وإنْ أَرْبَـــى بكثرتِـــه ... علـــى الفتـــى مَـــدَدًا إذا انقضـــتْ مُـــدَدُ
كـــأنّهمْ بعـــد مـــا امتـــدّ الزمـــانُ لهـــمْ ... لمّـــا مَضَـــوا فـــي ســـبيلِ المـــوتِ مـــا وُلِـــدوا
فـــنحنُ نبكـــي علـــى آثـــارِهِمْ جَزَعًـــا ... نقـــولُ لا تبعُـــدوا عنّـــا وقـــد بَعُـــدوا[1]

ثم وجّه شاعرنا كلامه بأنه لا يقصد به الوزير؛ لأنه على علم به ولا يحتاج من ينبهه، ولكنه قصد به ضعيف الرأي؛ فلماذا أراك أيها الوزير محافظًا على حزنك؟، مع علمك أنه لن يُرجعه للحياة مرّة أخرى، حتى ولو حرصت على هذا الحزن لإرجاع فقيدتنا الغالية، ثم أتبع كلامه بنصيحة غالية وهي: ألا يُفرط في البكاء وانهمار الدموع التي لن تُجدي شيئًا، فالموت سيأكل الجميع حتى أنت أيها الوزير، وما بقاءك حيًّا إلا بتقصير الموت تجاهك؛ وطالما أنك ستموت فلما هذه المغالاة في الحزن وعندك أولاد يحتاجون لحبّك ورعايتك وعطفك، وألا تذيقهم الموت ببُعدك عنهم وهم أحياء، وقد عبّر شاعرنا عن هذا بقوله: [البسيط]

قـــلْ للـــوزير: ســـواكَ المـــرءُ نوقظُـــهُ ... وســـمعَ غيـــرِكَ يغشـــى العَـــذْلُ والفَنَـــدُ
حتـــى متـــى أنـــتَ فيمـــا فـــاتَ مُكتئِـــبٌ ... جَنَـــى الحِمـــامُ فـــلا عَقْـــلٌ ولا قَـــوَدُ؟
دَعِ التتبُّـــعَ للعمـــرِ الـــذي قطعـــتْ ... عنـــه الحيـــاةَ المنايـــا وانْتَهـــى الأمـــدُ
مـــا دمـــتَ تطمـــعُ فيـــهِ فـــاحزنَنَّ لـــه ... فـــإنْ يَئِسْـــتَ فـــلا حُـــزْنٌ ولا كَمَـــدُ
واســـتبقِ دمعَـــك لا تـــذهَبْ بـــه سَـــرَفًا ... فمســـرفٌ فيـــه يُضـــحى وهُـــو مُقتصـــدُ

[1]– ديوان الشريف المرتضى، 324/1.

وإنْ جَزِعــــتَ لأنْ مُــــدَّتْ إليــــك يـــدٌ فبالّــذي عشــتَ مــا مُــدَّتْ إليــك يَــدُ
ومُنيـــــةُ الوالــــدينِ الــــدَّهرَ أجمعَـــهُ أنْ يكرعــا المــوتَ حتــى يســلمَ الولــدُ[1]

عزاء الشريف المرتضى للقضاة:

لقد حرص الشريف المرتضى أن يُقدّم عزاءه لأصحاب الجاه والسلطان؛ لكثرة احتكاكه بهم وتعاهدهم بزيارته وزيارة آل البيت – رضوان الله عليهم–، وكان مِن بين مَن قدّم له العزاء: القاضي أبو القاسم عبد العزيز بن محمد العسكري؛ حينما غَرِق ابنه سنة 432هـ، حيث واساه بألّا يجلس متحسِّرًا باكيًا على فقدان ولده كضعفاء القوم، وليتخذ العبرة والأسوة من فقد أكابر القوم الذين سكنوا القصور، ثم لم تنفعهم وتركوها بعد لهو وفرح وترف؛ فغدت قصورهم مظلمة، وتحوّلت الحياة إلى السكون، وهذه هي سنّة الحياة؛ فلا قويٌّ يخلد، ولا ضعيف يفنى؛ فالكل سواء عند الموت...، وقد عبّر شاعرنا عن هذه المعاني بقوله: [خفيف تام]

خـــلِّ مَـــن كـــان للجنـــادل جـــارا لا تعِـــــرهُ تَلهُّفًـــــا وادِّكـــــارا
فغبـــينُ الرجـــالِ مَـــن ســـلَبَتْهُ نُـوَبُ الــدَّهرِ فــي المصــابِ اصْـطبارا
واعتَبِــرْ بالَّــذين حَلُّــوا مــنَ العليــا ءِ والكبريـــــــاءِ دارًا فـــــــدارا
ملكــوا الأرضَ كلَّهــا ثــمَّ مَــن كــا ن علـــى الأرضِ فـــي الزمـــان مِـــرارا
فتـــرى دورَهُــــمْ وكـــنَّ مِـــلاءً بالمســـــرّات بعـــــدهُنَّ قِفـــــارا
مُظلمــاتٍ مــن بعــدِ أن أوقــدتْ فيـــ ـــها اللّيـــالي نـــورًا يلـــوحُ ونـــارا
وأكفًّـــا يوابسًـــا طالمَـــا فِضْـــ ـــنَ علـــى الخلـــق عَسْـــجَدًا أو نُضـــارا
أيـــنَ قـــومٌ كنّـــا نـــراهُمْ علـــى الأطـــ ـــواد حَلُّـــوا ثَـــرى الصَّـــعيد انتشـــارا؟
زَحمـــوا الأنجـــمَ العُـــلا غيـــرَ راضيـــ ـــنَ لهـــم ذلـــك الجـــوارَ جِـــوارا

[1]– المصدر السابق، 1/324–325.

كــلُّ قَــرْمٍ قــد طــابَ أصــلاً وفرعــاً وقـــــــديمًا وحادثًــــــا ونِجـــــــارا
ضـــــمَّ مُلكًـــــا وبســــطةً بيديــــهِ طيِّعـــــاتٍ إلـــــى البـــــراري البحـــــارا
وتـــــراهُ يجـــــرُّ فـــــي كـــــلِّ فـــــجٍّ طَلَـــــبَ العـــــزِّ جيشَـــــه الجـــــرّارا
لـــم يـــزل آنـــسَ المفـــارقَ حتـــى خلـــعَ المـــوتُ تاجَـــه والسِّـــوارا[1]

ثم استمر الشريف المرتضى في مواساة القاضي أبي القاسم، بتذكيره بأن الموت حقٌّ لا يمكن الفرار منه، مكرّرًا نفس المعاني التي ذكرها من قبل في تعازيه...، من ثم أخذ شاعرنا يوجّه نصحه للقاضي أبي القاسم، الذي لو قام بإجراء موازنة بسيطة بين الصبر الجميل وصبر المضطر: لوجد أن الله قد اختار له الخير، ولو كان يملك فداءه لفعل ولكن الأمر أقوى منه، فما عليك إلا توطين نفسك على تحمّل المصائب وترك ما عداه لغيرك أنت؛ حتى تنال الثواب الجزل من الله، ولتتيقّظ؛ لأن من دونك أمام المصائب سكارى.

من ثم قام شاعرنا بتوجيه بعد النصائح الغالية للقاضي أبي القاسم؛ فقال له: ونصيحتي لك أيها القاضي أن تتقبّل نُصحي لصدقه؛ فالقول الصحيح ما أنار الطريق، ولا يجب عليك أن تُنصت لمن حولك؛ لأنهم فريقان: الأول– لصيقٌ بك يخاف عليك والشاعر منهم، والثاني– دثار لا طائل من ورائهم.

ثم دعا الله – سبحانه وتعالى– أن يسقي قبر ابنه بكل سحابة تمرُّ من فوقه، وأرجو من الله أن يُولى الغمام سقاية قبره ليلا ونهارًا ومتى أراد، كما أَمِلَ الشريف المرتضى أن يرى القاضي بنفسه برق الغمام اللامع وكأنه يضحك، حتى وإن بدا عليه العبوس وسُمعت أصوات رعده الهادر، التي تتنافس للتجمّع فوق قبره، وقد عبّر شاعرنا عن هذه المعاني بقوله: [خفيف تام]

وإذا مـــــا وزنـــــــتَ ذاك بهـــــذا كنـــتَ مُعطـــىً فيمـــا عَـــراك الخيـــارا

[1]– ديوان الشريف المرتضى، 2/35–36.

كــنْ وَقــورًا علــى مَضاضــةِ خَطْــبٍ ... حُــطَّ عــن مَنْكِبَــيْ سِــواك الوَقــارا
واصــحُ كــي تُــدركَ الثــوابَ فكــلُّ النْــ ... ــنَاسِ فــي هــذه الخطــوبِ سُــكارَى
واســتمعْ مــا أقولُــه ودعِ الأَقْــ ... ــوالَ؛ فــالقولُ مــا صَــفا وأنــارا
وإذا مــا ســواكَ كــان دِثــارًا ... كنــتَ لــي بــالوِدادِ منــك شِــعارا
وســقَى اللهُ قبــرَهُ كلَّمــا ارفضْــ ... ــضَ قُطــارٌ ثَنــى إليــهِ قُطــارا
وتــولّى بــه الغمــامُ يُسقِّيــ ... ــهِ متــى شــاءَ ظُلمــةً ونَهــارا
وتَــرى بَرقَــه ضَــحوكًا وإنْ كــا ... نَ عَبوسًــا ورعــدَهُ النقَّــارا
وعَدتَــه الجــدوبُ فــي كــلِّ مَحْــلٍ ... وكَسَــتْهُ أنــوارُه الأَنــوارا[1]

عزاء الشريف المرتضى لبعض الوجهاء والأشراف:

لم ينسَ شاعرنا أن يُعزِّي بعض وجهاء قومه وأشرافهم مثل: كمال الدين بن عبد الرحيم في وفاة ابنه وهو نازل بعكبراء، حيث استهل قصيدته بتوجيه سؤال مهم ربما تغافل عنه كل مبتلٍ، وهو: هل يستطيع أحدكم أن يذكر لي اسم شخص استطاع أن يفرّ من الموت أو يأخذ براءة من مرارته؟، ولم يجد شاعرنا إلا إجابة واحدة تفرض نفسها على الجميع وهي: بالطبع لا؛ فالكل ذائق لكأس الموت، مهما طال العمر، فربما أمهلك الموت قليلا، ولكنه لا يتغافل عن عزيز لنا أو قريب أو حتى عدو، من ثم عبّر شاعرنا عن هذا بقوله: [الطويل]

أرونــي أمــرأً مــن قبضــةِ الــدَّهرِ مارقــا ... ومَــن لــيسَ يومًــا للمنيَّــةِ ذائقــا
هــو المــوتُ ركّــاضٌ إلــى كــلِّ مُهجــةٍ ... يُكِــلُّ مطايانــا ويُعْيــي السَّــوابقا
فــإنْ هــو ولَّــى هارِبًــا فهْــوَ فائــتٌ ... وإنْ كــان يومًــا طالبًــا كــان لاحقــا
فكــم ذا تغــول النّائبــاتُ نفوسَــنا ... وتســتلبُ الأهلــينَ ثــمَّ الأصــادقا

[1]– ديوان الشريف المرتضى، 2/39-40.

وكـــم ذا نُعِيـــر المُطمعـــاتِ عُيونَنـــا   ونُـــدنى إلـــى ريـــح الغـــرورِ المناشـــفا[1]

ومن المعروف أننا جميعًا نركن إلى الرفاهية وحب الدنيا وكراهية الموت، ولكن هذا المُكث وهذه الهدنة ستنقضي حتمًا ولابد من الموت، الذي يبطش بنا في النهاية؛ فينقلنا من سعة القصور إلى ضيق القبور، ومن الدِّعة والرفاهية إلى دار الدود والحساب...

ولقد وصل إلى علم شاعرنا هذه الفاجعة المريرة بموت ابن كمال الدين؛ فكانت الصدمة كبيرة ومروّعة، حتى أنه تمنى أن يكون هذا الخبر كاذبًا، ولكن ليس كل ما يتمناه المرء يُدركه؛ فقد ثبت صدق الخبر وصحّة النبأ رغم كرهي لسماع هذا الخبر، وقد عبّر الشريف المرتضى عن هذه الفكرة بقوله: [الطويل]

ونعشـــقُ فـــي دارِ الفَنـــاءِ مَواطنًـــا   يُعـــرّين منّـــا لـــم يكـــنَّ مَعاشـــقا
ونشـــتاقُ إمّـــا قاليًـــا أو مُقاطعًـــا   فيـــا شـــائقًا لـــي مـــا أضـــرّك شـــائقًا!
ولـــو أنّنـــي وفَّيـــتُ حـــقَّ تجـــاربي   قطعـــتُ مـــنَ الـــدَّهرِ العَثـــورِ العلائقـــا
نُطـــاحُ إلـــى الأجـــداثِ فـــي كـــلّ ليلـــةٍ   ونوسِـــدُ فـــي قَفْـــرِ التّـــراب المُرافقـــا
فيـــا خبـــرًا أذرى العيـــونَ جوامـــدًا   وأبقـــى القلـــوبَ السّـــاكناتِ خوافقـــا
أتـــاني طَروقًـــا وهـــو غيـــرُ محبّـــبٍ   وكـــم جـــاءَ مـــا لا تَشْـــتهي الـــنّفسُ طارقـــا
وددتُ ودادًا أنّـــــه غيـــــرُ صـــــادقٍ   وكـــم قائـــلٍ مـــا كنـــتُ أهـــواه صـــادقا[2]

ثم انتقل الشريف المرتضى لإشعار كمال الدين بأنه ليس وحده من ذاق مرارة هذه الفاجعة؛ فقد ذاقها من قبله وأحس بما يُحس، ولو كان لدى أحد القدرة على تحمّل فقدان الابن لتمكّن هو الآخر، ولكن يجب عليك أن تحمد الله أنك ما زلت على قيد الحياة؛ فأنت الأصل الذي يُضيء

(1)- ديوان الشريف المرتضى، 368/2.
(2)- المصدر السابق، 368/2-369.

علينا الدنيا نورًا، ولا يستطيع أحد أن يُنكر أننا فعلا قد خسرنا بموت ابنك سدًّا منيعًا، ولكنك بقيت لنا طودًا شامخًا نحتمي بك..، وقد امتثل شاعرنا هذه المعاني في قوله: [الطويل]

أصابكَ من شهمِ الرَّدى ما أصابني ... وكان لجلدي قبلَ جلدِكَ خارقا
ولو أنّني حُمّلتُ ثِقْلَك كلّه ... حملتُ عَلوقًا بالذي كنتُ عالقا
فإنْ يكُ غصنٌ من غصونك ذاويًا ... فقد أبقتِ الأيّامُ أصلَكَ باسقا
وإن يكُ نجمٌ غارَ بعدَ طلوعِهِ ... فقد ملأتْ منك الشُّموسُ المشارقا
أزال الرّدى منّا على الرّغم تَلْعَةً ... وأبقى لنا منك الجبالَ الشّواهقا[1]

من ثم أكمل الشريف المرتضى فكرته التي كثيرًا ما تكررت في قصائده التي تحت هذا الغرض، حيث أشار للمعزَّى بأنه كالقميص الذي يستر الجسد، ولا بأس بتلاعب الأيام بطرف من أطراف هذا القميص؛ فلا طاقة لأحد بمقاومة الأقدار التي اختارت الابن وتركت أباه وإخوته، ولقد افتقدنا الابن الذي لم يكن لنا نصيب في صحبته، حيث سترته القبور عنا ورقد بعيدًا عن عيوننا، ولا يسعك الآن إلا أن تتقبل العزاء مما حلّ بفقيدك؛ فلك أجر تربيته في الماضي والصبر على فقدانه في الحاضر، فلا يحقُّ لمن فقد حبيبًا أو قريبًا ألا يرضخ لقضاء الله ويصبر عليه، وإلا نفذ أمر الله وحُرِم الأجر على الابتلاء ونال العقاب على جزعه وقنوطه، وقد عبّر الشريف المرتضى عن هذه المعاني الجليلة بقوله: [الطويل]

وما ضرَّ والسِّربالُ باقٍ على الفتى ... إذا شعّثَتْ منه اللّيالي البنائقا؟
وفيكَ وفي صِنْوٍ له عِوضٌ به ... إذا نحنُ أَنْصَفْنا الخطوبَ الطّوارقا
وساءَ به مَن سرَّنا بمكانهِ ... وأفناهُ مَن أعطاهُ بالأمسِ رازقا
حُرمناهُ حظًّا بعد أنْ أخذتْ لنا ... على حظِّنا منك اللّيالى المواثقا

[1]– ديوان الشريف المرتضى، 369/2.

وما كنتُ أخشى أنْ يَسُدَّ به الرّدى ... فُروجَ الليالي دونَنا والمخارقا
وأنْ يحجبَ الصُّفّاحُ بيني وبينَهُ ... ويودعَه وسْطَ العَراءِ الشَّقائقا
فيا أيُّهاذا العادلُ المُقْرَمُ الذى ... رضِيناه خَلْقًا كاملاً وخلائقا
تَعَزَّ عن الماضي ردىً بثوابه ... وكُنْ بالذي يجزى على الصّبرِ واثقا
فليس لمخلوقٍ وإنْ عضّه الرّدى ... فضاقَ ذراعًا أنْ يعارضَ خالقا[1]

عزاء الشريف المرتضى خاله:

لقد نظم شاعرنا قصيدة عزّى بها خاله الشريف أبا الحسين أحمد بن الحسن الناصر في وفاة بنت له، وقال: أن الزمان القاهر يرفض الانصياع إلا إلى ما لا يناسب الشرف، والدهر ولوعٌ بإغضاب العلاء، ولو كان هناك أحدٌ أحقُّ بألا يحزن لكنت أنت، ولكن لا يوجد من يُعطيك حقك ويُنصفك، حتى أنك لا تجد من يجاريك في العدْوِ نحو الشمس التي لم تمنح نورها لكوكب من الكواكب، وطالما أن الأرواح تيقّنت أنه لا سبيل ولا مفر من الموت؛ فلا أسف ينفع وقتئذ.

وكما نعلم أن الموت إذا استهدف أحدًا فلا طاقة له بالهروب منه؛ لأن سهامه لا تُخطئ، حيث اعتاد المرأ في حياته على السعي والاجتهاد، ولكن الموت من خلفه يُلاحقه ويطلبه، حتى لو قرّر المرأ التريّث في مسعاه فإن الموت لا يتريّث؛ من ثم يرى كل منا أمورًا جِسامًا في حياته تذرف منها دماؤه، ولكنها لا تحول عن الموت أو رؤية هذه الأمور، وأكثر ما نفعله هو: استنكار فعل الدهر – الذي حرِص على نفثِ أذاه ورزاياه– وما يرمينا به من ابتلاءات، ومحاولة دفعها بعيدًا، ولكن يد الموت قريبة من كل مكان نذهب إليه، حتى أن كل أرض مشرفة على خطره، وقد عبّر شاعرنا عن هذه المعاني الجليلة بقوله: [البسيط التام]

[1]– ديوان الشريف المرتضى، 370/2.

أبـــى الزّمـــانُ سِـــوى مـــا يكـــرهُ الشّـــرفُ ... والـــدَّهرُ صَـــبٌّ بإســـخاطِ العُـــلا كَلِـــفُ
لـــو كـــان شـــخصٌ تفـــوتُ الحـــزنَ مهجتُـــهُ ... لكنـــتَ ذاك، ولكـــنْ لـــيس تُنْتَصَـــفُ
إذا بَقِيـــتَ فمـــن يَعْـــدوك مُحتَسَـــبٌ ... فـــي الشّـــمسِ مـــا أشـــرقت عـــن كوكـــبٍ خلـــفُ
إذا تيقّنَـــــــتِ الأرواحُ بعْثَتَهـــــــا ... إلـــى الحِمـــامِ فمـــاذا ينفـــعُ الأســـفُ؟
وكيـــف تُخْطـــي ســـهامُ المـــوتِ مُفْلِتَـــةً ... مَـــنْ نَحـــرُهُمْ لحِنيَّـــاتِ الـــرَّدى هـــدفُ؟
يَســـعى الفتَـــى وخيـــولُ المـــوتِ تطلبُـــهُ ... وإنْ نَـــوى وقفـــةً فـــالموتُ مـــا يقـــفُ
نَلقـــى مـــنَ الـــدَّهرِ مـــا يُـــدمي محاجرَنـــا ... ومـــا لنـــا عـــن هـــوَى رؤيـــاهُ مُنْصَـــرَفُ
أفعالُنـــــا للرَّزايـــــا فيـــــه مُنكِـــــرةٌ ... ونطقُنـــــا بارتحـــــالٍ عنـــــه مُعتـــــرِفُ
إنْ لـــــم تـــــوفِّ ليـاليـــــه مكارهَهـــــا ... فقـــــد تقـــــدّمَ فـــــي أرزائهـــــا سَـــــلَفُ
كـــلُّ المـــواطنِ مـــن كـــفِّ الـــرَّدَى كَثَـــبٌ ... وكـــلُّ أرضٍ علـــى هـــولِ الـــرَّدى شَـــرَفُ[1]

من ثم يضجر الشريف المرتضى من فعل الأيام التي تُنقص من خير الليالي؛ فهي تسلب بالفرص، وتُحزن بالمنع، كما أن كرمها إفراط، ومن عادة الإنسان أنه إذا حزِن أتبعه المجد بالحزن، وإذا مرضت عينه أظلم وجه الصباح، ولو كنت تعلم فعلا أن الدهر يتسلل إلى ساحة دارك لمنعته، ولكن الدهر سارق بارع في الاختفاء، ولا قدرة لنا على منع جُرأة السارقين.

كما بيّن شاعرنا أن الدهر لو أطلق لسانه على المُبتلَى لَمَا تحمّل ضُرَّه وأذاه، ولاستغاث عنه بطلب الكفّ والمنع عن هذا الأذى، ولقد كان الدهر سالفًا يرتع في مغناك ويُعطيك، ولكنه الآن يأبى العطاء ويُؤثر المنع، من ثم توشّح شاعرنا بثياب الموت وقدّم عزاءه إلى المفقود؛ فهو يسعى لإبعاد الهموم عن قلب ألمّت به نواصي الهمِّ، ويبشِّره بأن هذه البنت التي أصابت قلبه بحرقة إنما سبقته إلى الجنة وتنتظره على بابها؛ فأنت على علم ودراية بما يذكّرك به المعزّون، ولا تحتاج لمواعظهم...، من ثم تجسّدت هذه المعاني الجليلة في قول شاعرنا: [البسيط التام]

[1]– ديوان الشريف المرتضى، 2/311–312.

لا درَّ درُّ اللّيـــــالي أخـــــذُها فُـــــرصٌ ومنعهـــا غُصَـــصٌ بـــل جودُهـــا سَـــرَفُ
إذا حزنـــــتَ فقلـــــبُ المجـــد مكتئـــبٌ وإنْ قُـــذِيتَ ففـــي وجـــهِ الضُّـــحَى سَـــدَفُ
ولـــو علمـــتَ ببســـطِ الـــدَّهرِ قبضـــتَهُ إلـــى فِنائِـــك مـــا طالـــتْ لـــه كَتِـــفُ
لكنّـــــه ســـــارقٌ يُخفـــــي زِيارتَـــــه ولـــيس مـــن ســـطوةِ السُّـــرّاقِ مُنتَصَـــفُ
إنْ كـــان أطلـــقَ فيـــك الـــدّهرُ منطقَـــه فقـــد دعـــاك لســـانٌ حشـــوُهُ كَفَـــفُ
أو كـــان ألْهَـــبَ فـــي مَغنـــاك ســـابقَهُ فقـــد ثنـــاه برجـــلٍ ملؤُهـــا حَنَـــفُ
يُهـــدى العـــزاءَ إلـــى المفقـــودِ مُفتَقِـــدٌ مـــؤزَّرٌ بثيـــابِ المـــوتِ مُلتحـــفُ
ويصـــرف الهـــمَّ عـــن قلـــبٍ أطـــافَ بـــه مَـــن قلبُـــهُ لِنَواصـــي الهـــمِّ مُكتنـــفُ
إنَّ الّتـــي أَضْـــرمتْ أحشـــاءَنا جَزَعًـــا تلقـــاك منهـــا غـــدًا فـــي الجنَّـــةِ الزُّلَـــفُ
ولـــن يُـــذكِّرَك المُسْـــلونَ مَوعظـــةً وأنـــتَ تعلـــمُ منهـــا فـــوقَ مـــا وَصَـــفوا[1]

عزاء الشريف المرتضى لبعض الأصدقاء:

كما لم ينسَ الشريف المرتضى تعزية أصدقائه؛ فليس كل أحد يُخلص لأصدقائه ويتذكرهم في أفراحهم وأتراحهم، حيث عزّى صديقه أبا الحسن عليّ شهفيروز عن موت أخيه، وبيّن له حقيقة أن الجميع سيموتون رغم طمعهم في الخلود والبقاء، وهذا يُنافي صفة الفناء التي خلقنا الله عليها؛ فهو يعطينا ويمنعنا بإرادته وحده، وما الموت إلا داء عُضال لا دواء له عند أي طبيب، والناس في حيرة من أمرهم بين رجاء في الحياة ويأس فيها، ثم تساءل باستنكار: أين الذين سبقوكم بعد دعة ورخاء وجاهٍ وسلطان؟، أين من ملكوا القصور وحازوا الأنفة والإباء؟، جادت عليهم الدنيا بأنواع القوة والشجاعة والجود والسخاء، أين هم الآن؟؟...، وقد عبّر الشريف المرتضى عن هذا المعاني بقوله: [مجزوء الكامل]

[1]– ديوان الشريف المرتضى، 2/312–313.

مـــــا نحـــــنُ إلّا للفَنـــــاءِ وإن طَمِعنـــــا فـــــي البقـــــاءِ
نُعطَـــــى ويســـــلبُنا الـــــذي أعطـــــى التمتُّـــــعَ بالعطـــــاءِ
والمـــــــوتُ داءٌ مالَـــــــهُ عنـــــدَ المـــــداوي مِـــــن دَواءِ
والنـــــاسُ فينـــــا كلُّهـــــم مـــــا بـــــينَ يـــــأسٍ أو رَجـــــاءِ
أيـــن الَّـــذين سَـــقَتْهُمُ الـــ أيـــــامُ كاســـــاتِ الرَّخـــــاءِ
وتملّكُـــــوا رِبَـــــقَ الـــــوَرى وعَلَـــــوْا علـــــى قُمـــــمِ العَـــــلاءِ؟
وتَـــــرى بعَقْـــــوةِ دارِهـــــم مَجثـــــى الحميّـــــةِ والإبـــــاءِ
والســـــاجِبونَ علـــــى قِنـــــا نِ الملـــــكِ هُـــــدَّابَ المُـــــلاءِ
والمُرْتَـــــوون مِـــــنَ النعـــــيمِ، كمـــــا تَمَنّـــــوا والثّـــــراءِ
والســـــائِرون وحـــــولهم أُسْـــــدُ الشّـــــرى تحـــــتَ اللـــــواءِ[1]

ثم تذكّر الشريف المرتضى بعض صفات الفقيد من الجود والكرم والتنافس على العطاء، حيث كان يفتش عن المحتاجين كما يبحث الصقر عن فريسته كي يقنصها؛ فقد كان الفقيد لا يُخطئ في كرمه ولا يضل بعطائه، وإن حاول الآخرون الغدر بوفائه، وقد أنهم سينجون من الموت بغدرهم، ولكن من أسف فقد اقتنصهم الموت وأسكنهم القبور؛ فصاروا إلى بِلى ولم ينفعهم غدرهم، وإذا بكَ تراهم في أجداثهم الضيّقة، وقد تحللوا وصاروا ترابًا، وتناثر هذا التراب بين الصخور والأتربة؛ فتساوت عندهم الآلام والأفراح، والشتاء والصيف، والنزاع والوِفاق...، وقتها يستطيع الميت أن يرى ما لا يراه الأحياء...، وقد عبّر شاعرنا عن هذه المعاني الجليلة السامية بقوله: [مجزوء الكامل]

---

[1]- ديوان الشريف المرتضى، 1/29-30.

تَجـــري يـــداهُ بكـــلِّ مـــا ... يهـــوى المؤمّـــلُ مـــن ســـخاءِ
وتـــراهُ كالصـــقرِ الـــذي ... لمـــحَ القَنيصـــةَ مِـــن عَـــلاءِ
مـــا ضَـــلّ قـــطُّ وإنْ هُـــمُ ... غـــدروا بـــهِ طُـــرقَ الوفـــاءِ
ورُمُـــوا إلـــى ظُلَـــمِ الصَّـــفا ... ئـــحِ فـــي صـــباحٍ أو مســـاءِ
دخلـــوا ولكـــنْ فـــي الـــذي ... لا يرتضـــون مـــن الخـــلاءِ
ومتـــى دَعَـــوْتَهُمُ فهُـــمْ ... صُـــمٌّ المســـامعِ مـــن دُعـــاءِ
وَبَغـــوْا نجـــاءً حـــينَ سُـــدْ ... دَتْ دونهـــم طُـــرُقُ النَّجـــاءِ
ونـــأوْا كمـــا اقتـــرحَ الحِمـــا ... مُ عـــنِ التَّـــنَعُّم والشَّـــقاءِ
وتـــراهمُ فـــي ضَـــيِّقِ الـــ ... أقطـــارِ مـــن ذاكَ الفضـــاءِ
وتَطـــايروا بيـــدِ البِلـــى ... خلـــفَ الجنـــادِل كالهَبـــاءِ
والقـــيظُ عنـــدَهُمُ وقـــد ... سُـــلبوا المشـــاعرَ كالشِّـــتاءِ
مـــا فـــي الـــرَّدى، مـــا فـــي ســـوا ... هُ مـــنَ التَّنـــازع والمِـــراءِ
وإذا نظـــرت إلـــى الحِمـــا ... مِ فمـــا لعينـــك مـــن غِطـــاءِ[1]

من ثم استغرق الشريف المرتضى في مواساته لفقد صديقه، حيث حسّ أخو صديقه ألا يحزن إذا وجد ما يؤذي عينه أو يُفرحها؛ فما أقرب المسافة بين الهناءة والعزاء!، ويا حبذا لو فوّضت أمرك لله دون ثورة أو غضب على قضائه، فلن ينجو من الموت أحدٌ، فأولى بك ألا تخاف؛ لأنه من دأب النساء، ولكن أخاك قد مات نُصرة لأصدقائه وهي صفة محمودة.

بيد أن الله كما أعطاك في الماضي قد منع عنك العطاء الآن، فلا تجزع ولتصبر على المصائب إذا داهمتك؛ فهي مفرخة الرجال، وبكثرة التجارب والابتلاءات يتبيّن لك الشجر القاسي

[1]- المصدر السابق، 1/30-31.

من القصب الهشّ، ولا تعتب على من أبقاكَ حيًّا وقبضَ غيرك إليه؛ فهو الذي سقى التراب الذي وارى جسد أخيك فيه بماء غزير؛ رحمة من ربك، فالرحمة إذا حلّت به خير من ماء وفير ورزق عميم...، وشاعرنا كما نرى قد عبّر عن هذه المعاني بقوله: [مجزوء الكامل]

خــلِّ التعجّــبَ مــن قــذىً وخــذِ التعجّــبَ مــن صــفاءِ
يــا قُــربَ مــا بــينَ الهَنــا ءِ بمــا يســرُّك والعَــزاءِ!
خفّــضْ عليــكَ ودَعْ تَتَبْــ ــبُعَ مــا مضَــى بيــدِ القَضــاءِ
وإذا بقيــتَ فقــلْ لنــا: أيعــيشُ مَيْــتٌ بالبكــاءِ؟

إلى أن قال:

وعلــى التجــاربِ بــانَ نــبْ عٌ تَجْتنيــهِ مِــنْ أَبــاءِ
وإذا بقيــتَ فــلا تَلُــمْ مَــن خَــصَّ غيــرَكَ بالفنــاءِ
وسَــقى الــذي وارَى أخــا كَ مــنَ الثَّــرى سَــحُّ الــرِّواءِ
صَــخْبُ التــرنُّمِ حالِــكُ ال قُطــرين مملــوءُ الوِعــاءِ
ولَرَحْمَــةٌ مَصــبوبةٌ خيــرٌ لــه مــن فــيضِ مــاءِ[1]

[1]– ديوان الشريف المرتضى، 1/32–33.

المصادر والمراجع

1. القرآن الكريم.
2. التعازي والمراثي، للمبرد، تح: محمد الديباجي، دمشق: مطبعة زيد بن ثابت، د.ت.
3. ديوان الشريف المرتضى، شرح: محمد ألتنوجي، ط1، دار الجيل- بيروت-1417هـ/1997م.
4. رثاء الشهداء في عصر صدر الإسلام حتى سنة٤٠هـ، د. سفير خلف القثامي، ط١، المدينة المنورة: مطبعة الجامعة الإسلامية، ١٤٢٥هـ.
5. سلسلة فنون الأدب العربي رقم٢- الرثاء، د. شوقي ضيف، ط٤، دار المعارف- القاهرة.
6. شرح ديوان أبي الطيب المتنبي، تحقيق: د. عبد المجيد دياب، دار المعارف- القاهرة، د.ت.
7. شعر الرثاء العربي واستنهاض العزائم، د.عبد الرشيد عبد العزيز سالم، الكويت: وكالة المطبوعات، د.ت.
8. الصحاح- تاج اللغة وصحاح العربية، إسماعيل بن حماد الجوهري، تح: أحمد عبد الغفور عطار، ط ٢، بيروت: دار العلم للملايين، ١٣٩٩هـ -١٩٧٩م.
9. لسان العرب، لابن منظور، صححه: أمين محمد عبد الوهاب-محمد الصادق العبيدي، ط٢، بيروت: دار إحياء التراث العربي-مؤسسة التاريخ العربي، ١٤١٧هـ -١٩٩٧م.
10. مصنف عبد الرزاق، للصنعاني، تح: حبيب الرحمن الأعظمي، دار النشر: المكتب الإسلامي بيروت، ط2، 1403هـ.
11. من عيون شعر المراثي، تح: د. محمد إبراهيم نصر، دار الرشيد، د.ت.